

## من نحن وماذا نريد

تعالوا نسأل انفسنا سؤالاً بسيطاً ونجيب عليه بدقة ووضوح. من نحن وماذا نريد؟ اول من اجاب على هذا السؤال كان الفيلسوف اليوناني ارسطو عندما قال انا انسان واعرف نفسي كإنسان بأنني حيوان اجتماعي عاقل. أم لك طبيعة الحيوان بآلية عمل جسدي غريزة وحواسا وانفعالات ولكنني حيوان اجتماعي لا أستطيع ان اعيش الا وسط جماعة لها انظمتها التي ترعى الافراد وتوفر لهم الحماية والحاجات الضرورية للقيام بأود معيشتهم وتساعدهم على تطوير ذواتهم عبر آليات لاكتساب المعرفة النظرية والعملانية وبالتالي تأخذ بيدهم باتجاه تحقيق انسانياتهم ومحاولة بلوغها الى مرتبة الكمال. هذا التعريف يقودنا الى العقل الذي هو جوهر الوجود الانساني فأنا أفكر اذن انا موجود وتفكيري لا يتحرك حركة عشوائية ولكن حركته هادفة تتشد المزيد من التطور ولا ارتقاء سواء على صعيد الفرد في العلاقة بين وعيه وحريته وقدرته على بناء قدره بيديه او على صعيد المجتمع بتنظيمه عاى قوانين العدالة التي ترسم حدود العلاقات بين الافراد والطبقات والمهن. ولكن العقل الانساني لا يكتفي بذلك ولكنه يحاول ان يتطور من المحسوس الى المجرد ومن الادراك الجزئي الحسي الاشياء الى ادراك المعقولات الكلية المجردة فهو سيجد نفسه يتقل من ادراك معنى وصف بعض الموجودات في الطبيعة والمجتمع بأنها جميلة الى محاولة ادراك ماهية الجمال في المطلق ومن ادراك بعض الحالات في تصرفات الحكام والمسؤولين بأنها عادلة الى محاولة ادراك معنى العدالة في المطلق. ومن معاناة الظلم في بعض تصرفات الاخرين نحوه الى محاولة ادراك معنى ماهية الظلم. ولكن الامور على ارض الواقع تتحرك في غالب الاحيان بآليات تخالف منطق العقل وتضرب بعرض الحائط بكل المعقولات الجزئية والكلية على حد سواء. على ارض الواقع يهيمن بعض الاقوياء على السلطة والثروة فيحتكروها لأنفسهم ثم يسنون القوانين التي تساعد على تميمتها وتمركزها في ايديهم حتى يورثوها لاحقا لأبنائهم واحفادهم وكأنها مكرسة كقدر يعتبر رفضه تمردا على العرق والقانون وعبثا يأمن المجتمع واستقراره. ولكي يبرروا هذا الاحتكار للسلطة والثروة الذي يقود الى حرمان الآخرين واضطهادهم ينتكرون او يساعدون على ابتكار مفاهيم غيبية يدعي اصحابها انها اوحيت اليهم من ابهم الذي في السماوات فهي لذلك مقدسة وازلية من يشك بأحقية قدسيتها او يناقش في هذه القدسية يتهم بالكفر والخيانة والزندقة فيستحل دمه وماله وعرضه وتستباح كرامته وممتلكاته. ولذلك اعتبر فلاسفة العقل وخصوصا في عصر الانوار في القرنين السابع عشر والثامن عشر في اوربا "ديكارت - سبينوزا - ليبنتز - ان جوهر العقلانية يتمثل في تحرير الروح الانسانية من وصاية السلطة وتحرير المجتمع من وصاية الكهنوت الديني. ولهذا ارتبط عندهم تحرر المجتمع من سطوة الكهنوت بتحرر الفكر من المفاهيم اللاهوتية التي تعتمد الغيبيات والمعجزات المناقضة لمنطق العقل والمنهج التجريبي.

السؤال الثاني في هذا المجال هل يستطيع اي كائن حي غير الانسان ان يعي وجوده! اي ان يعي انه كائن له هويته الذاتية الخاصة به والتي تتقاطع مع هويات الآخرين في كثير من النقاط ولكنها تحتفظ باستقلالية ذاتها وجوهريه هذه الذات. هذا السؤال يجعلنا نجيب بدون تردد وكأن الجواب هو احدى البديهيات التي لا تحتاج الى

برهان بل هي البرهان الذي يحتاج اليه تفسير الاسئلة الاخرى. ان الانسان يعي وجوده ويعي وجود ما هو مستقل عنه ويعي وجود ما هو مترابط ومشارك مع طبيعته. بل يعي ان وجود الاشياء برمتها في هذا الكون هو لخدمته على النشوء والنمو والتطور في عالم المعرفة من مرحلة الى مرحلة اعلى والشغل على الذات حتى وصولها الى مرحلة كمالها وهي ادراك المعقولات الكلية المجردة او ادراك الجانب الالهي من النفس الانسانية. هنا نستطيع ان نقول ان الفضل الاكبر لعصر الانوار في اوربا انه اعاد الاعتبار للانسان كمركز لهذا لعالم ومحور له. فلا شيء يوجد بمعزل عن الانسان لأن الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يعي وجود الاشياء الاخرى. فاذا كانت هذه الاشياء ليست موجودة تجاه نفسها لأنها لا تعي وجودها فهي بالتالي ليست موجودة الا تجاه الانسان. من هنا برزت العلاقة بين الانسان والله التي هي معرفة الانسان لله والسعي الدؤوب للتواصل معه الذي هو في حقيقة الامر التواصل مع الذات لأن الله ليس خارج ذواتنا فتخلو منه ذواتنا وليس محصورا في ذواتنا فيخلو منه الوجود. ولكن الوجود بما فيه من حجار ونبات وحيوان وكواكب وافلاك ممتلىء بالله منضبط تحت تنظيم قوانينه العقلانية الغائبة. في هذه النقطة بالذات ينتفي الحديث عن وجود الله كموضوع ميثاقيزيكي لا علاقة له بواقع حياتنا البيولوجية والنفسية والاجتماعية. كما ينتفي معنى الكلام الذي يقول انه بوجود المعرفة العلمية التي تعتمد الملاحظة والتجربة لم يعد وجود الله ممكنا. ولذلك تعتبر العقلانية هي الابتعاد عما لم يعد ممكنا. اي اللابتعاد عن مسألة مناقشة وجود الله او عدم وجوده كما فعل ساراش او كما فعلت الماركسية. القصة اعلم من ذلك بكثير فنحن لا نستطيع ان نعرف من نحن الا اذا عرفنا الله. نحن كائنات نملك الوعي وفي اعماق وعينا ببديهيات منطبعة في جواهر عقولنا فنحن نعلم بالبديهة ان الكل اكبر من الجزء وان الشيء المادي لا يستطيع ان يوجد في ماكنين مختلفين في نفس اللحظة. وان الزمان والمكان يحيطان بكل الاشياء المادية. وان النفس الانسانية لا تستطيع ان تمارس وعيها وعملها الا من خلال آلات الجسد المادي. وأن الله خلقنا ليعرف فينا ربنا. ولذلك لا يستطيع اي عاقل ان يتخيل ان الله اذا ما اراد ان يتجلى للناس من الممكن ان يتجلى بغير الصورة الانسانية واذا ما اراد ان يخاطب بني البشر ان يخاطبهم بغير لغاتهم. من اجل ذلك اشتغل الكثير من الفلاسفة والمتصوفين على النفس الانسانية عبر الرياضات الجسدية والروحية بقصد ان تستطيع النفس الواعية مفارقة الجسد والانطلاق مع علمهم اليقيني انها لا تفارق الخسد طرفة عين وكان قصدهم في المفارقة ان تخضع طبائع البشر لطبائعها فتتجوهر طبائع الجسد بطبائعها كما بتجوهر الحديد بالمغناطيس عندما يتمغظ. عندها تتواصل النفس مع الله كما عبر عن ذلك الكثير من المتصوفين امثال ابو يزيد البسطامي والحلاج وبوذا وطاغور. اما اذا استطاعت طبائع الجسد وحاجاته ان تجذب طبائع النفس الواعية اليها وتسخرها لأغراضها عندها ينتكس الانسان ويرتكس ويضع نفسه العاقلة في سجن نفسه الحيوانية وما تفرزه من تناقضات وازداد تنوالد من بعضها البعض. يبقى ان نجيب على الشطر الثاني من السؤال ماذا نريد؟ الجواب الطبيعي على هذا السؤال ان آخر ما يريده الانسان ويسعى بالحلم واليقظة الى تحقيقه هو السعادة. ولكن هذا الجذواب البسيط والشديد الوضوح والدقة يصبح بدوره سؤالاً يتطلب الكثير من الاجوبة. اولا ما هي السعادة؟ هل هي قدرة الانسان على تحقيق رغباته؟ واذا ما كانت كذلك فهل رغبات الانسان ثابتة ام متغيرة حسب تغيير ظروفه الحياتية وحاجاته الفيزيولوجية والسايكولوجية؟ هناك شيء آخر هل رغبات الانسان متوازنة متناسقة ام متناقضة متضادة واشباع رغبة ما يكون على حساب كبت

رغبة اخرى وبالتالي ما نكون جنيناه من سعادة في تحقيق رغبة معينة سنضطر ان ندفع ثمنه الما وتعاسة في كبت رغبة اخرى. كل هذا يجعلنا على بينة من ان تحقيق الرغبات لا يثمر السعادة بالضرورة فما هو الشيء الذي يثمر السعادة اذن؟ انا شخصيا اقول ان السعادة هي في الوصول الى الاشياء التي تطلب لذاتها ولا تطلب لغيرها. ولتوضيح هذا الرأي سأضرب امثلة: فالمال مثلا يطلب لغيره ولا يطلب لذاته. نحن نطلب المال انشترى به بيتا وسيارة ووسائل رفاهية او لنقهر به ارادة الآخرين ونسود عليهم. اما اذا لم يستطع المال ان يلبي هذه الحاجات التي في اغلبها غير عادلة يفقد المال قيمته. او ان نطلب الرئاسة لنمارس سلطتنا على الآخرين ونصادر حرياتهم وعقولهم (كما يفعل حاليا كل رؤساء هذا الشرق الاوسط) جوارحه وآلاته. وهل سعادة النفس العاقلة الا في هذا التطور والارتقاء الهادف الذي يبغى التواصل بين الفرع والاصل على جسر عبور اسمه منطق العقل وفهم قوانينه الثابتة والمتحركة ضمن نظام معين علينا ان نكتشفه ونفهمه لنتناغم معه وننسجم.

كمال سري الدين

٢٠٠٩/٣/١٧